وضاح شرارة... العصبية الغالبة في الحروب الأهلية العربية المعاصرة

كتب عباس بيضون

01 فبراير 2026 | آخر تحديث: 08:03 (توقيت القدس)

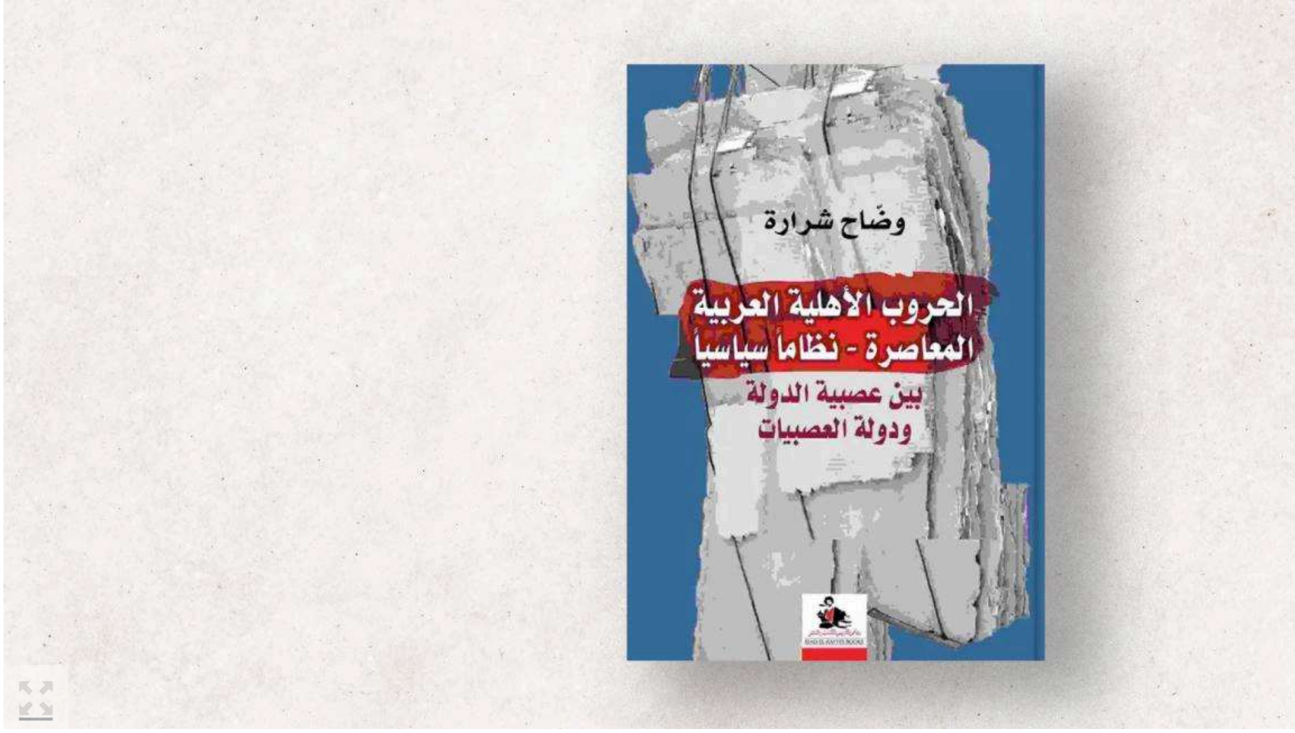

غلاف الكتاب (تصميم العربي الجديد)

"الحروب الأهلية العربية المعاصرة نظاماً سياسياً" كتابٌ لوضاح شرارة، صدر حديثاً عن دار رياض الريس في بيروت، ضخمٌ ليس فقط بصفحاته التي تزيد عن 550 صفحة، ولا بأبوابه التي تتناول في فصول عدّة سورية وفلسطين ولبنان وإيران والعراق والسودان واليمن، وتمرُّ على ليبيا، لتنتهي في المشرق إلى أنّ "الحروب الأهلية كلّها ملبننة وتورث اللبننة"، ولتختتم بـ"خلاصات، ماذا يُنسى مع الحرب الأهلية".

نحن في كلّ من هذه الأبواب، وتلك التي تتناول بوجه خاص بلداً بعينه، أمام أيام وظروف وحوادث من داخل البلد وحوله، لكنّ التعداد لا ينفي قُربى بين البلد وغيره. ليست قربى فحسب، بل واشتراكات في المصدر والمورد والأساس. عنوان "الحرب الأهلية العربية المعاصرة" شامل للبلدان جميعها. لا يعتني الكتاب بإثبات ذلك، أو محاكمته، أو البناء النظري عليه. إنه يبدأ منه، ليس سوى الحرب الأهلية في هذه البلدان جميعها. ذلك لا يعتدّ الكتاب ببداهته ولا بمعاصرته، لكنه يقرأه في أحوال كلّ من تلك البلدان، ويتابعه ظرفاً بعد ظرف، وواقعة بعد واقعة، وركناً بعد ركن، وأساساً بعد أساس.

لا يعقد الكتاب مقابلات بين بلد وغيره، وقلّما يُطلق على واقعة في بلد مُسمّى بسواها، إلّا حين يسوقه الإيضاح إلى أن يستدل بلبننة الظروف أو الحوادث، بل إن فصلاً من الكتاب يحمل عنوان "الحروب الأهلية العربية كلّها ملبننة وتورث اللبننة"، ذلك يدعونا إلى أن نرجع إلى الباب الخاص بلبنان، نحن هنا سنجد ما لا يمكن معه أن نختصر الكتاب في هذا الباب، لكننا في جريانه وتسلسله، نطلّ من قريب على الأبواب التي تختصّ بأقطار أُخرى. نُطلّ، لكن بدون أن يغنينا ذلك عن قراءة بقية الأبواب، وأن نجد لكلّ منها خصوصيته ومبناه.

غلبة العصبية داخلياً يعني ارتباطها بجهة أو دولة خارجية

العربي الجديد

مباشر

الذي يستولي على الأمر كلّه، وهو في ذلك يغلّف في هذا الزعم مصالح وأغراضاً، قد تصل إلى النهب أو التسلّط أو الاستبداد، كما نرى في استناد النظام الإيراني إلى الدين وإلى العدل الإلهي، في حين يأخذ بالشُّبهة والظنّ.

من هنا لا نجد أنفسنا فقط تجاه الغلاف الديني، لكننا نجدها أمام ثنائية تجمع بين الدولة الفعلية ودولة الظل، وإذا عُدنا إلى المثال الإيراني نجد ثنائية الحرس الثوري وقوات الأمن "الباسيج"، الرئاسة والمرشدية، الحكومة ومجلس تشخيص مصلحة النظام. هذه الثنائية هي، حتى في حكومة دينية، تقدّم المعايير الطبقية والمصلحية على المعايير الدينية. رديف هذه الثنائية هو قسمة العالم إلى فسطاطَين، والوجه الآخر له هو دمج الهيئات والجماعات والمصالح المتضاربة في كلٍّ واحد. هذا الواحد لا يظهر فوراً في لبنان، كما هو الأمر في البلدان الأُخرى، لكنه يظهر من خلال الرماد، من خلال الفوضى العامة والاختلاط والكثرة. تنحو عصبيات أهل الضعف، العصبيات التحتية والعامّية، إلى أن تترعرع في أحضان الحركات القومية والدينية. إنه قبض الأطراف على المركز السياسي، الأمر الذي لا يحدث إلّا بعملية دمج لمختلف الأوجه والوظائف والمراتب، تتمة لدمج أنواع الاحتجاج وجماهيرها، بعضها ببعض.

هذه العملية لا تلبث أن تطاول السلطات والموارد والاقتصاد والمراتب والمال والقرابات واللَّحَم العشائرية والمناطقية والمحلية والعامة. هكذا نصل إلى لغة انتصارية غالبة، وإلى نوع من تسفيل الخصم وإنزاله منزلة العدم، والتلويح بقوة ذاتية في حدود خيالية. هذا ما يُسمّيه شرارة "بلبلة الألسن"، والواضح أن هذه البلبلة هي تقريباً أسلوب العصبيات الغالبة، عصبيات الأطراف، وهي لغتها ودعوتها وخطابها. ثم إنّ غلبة عصبية كما في المثالات كلّها ومنها المثال اللبناني، لا تلبث أن تنفذ من حدودها، وتصل إلى عالمية مفترضة، تصلها بهذه الدولة أو تلك الجهة القائمة في الخارج.

نقرأ في كتاب وضاح شرارة، في أسلوب يُمكن أن نصفه بالطرافة، بما تعنيه الطرافة من الجدّة ومن التعليق الضمني الذي لا يفوته تهكُّم خفيّ ونكتة معلّقة، وموازاة بين تعاريج الفكرة وانحناءات الجملة، والبناء بما يمازج بين سرد مُضمَر، وبين تلغيم خفيّ ومحاكمة من بعيد. هذا ما يمكننا أن نلحظه في العناوين، التي تملك أحياناً ما يجعلها وسيطة بين الكاتب والقارئ، وما يردّها أول الحكاية، وأحياناً كثيرة عبرتها.

*شاعر وروائي من لبنان

كتب

قصر الدار البيضاء.. المكان أثراً سياسياً في تاريخ الدولة

دلالات

الكتب الحروب الأهلية قراءة ثانية

الأكثر مشاهدة

1 مطاران سوريان يستعدان للإقلاع... آمال بإنهاء عزلة الشرق

2 رامز جلال في رمضان 2026... جمهور في المصيدة

3 الجزائر تتخلى عن التعويض والاعتذار وتتمسك باعتراف فرنسي بالاستعمار

المزيد في ثقافة

"ليالٍ وأيام"... معرض يستلهم ألف ليلة وليلة في مدريد

أنس خلف يوثق واقع دمشق الجديد في "الرحيل"

توم سوير بعد 150 عاماً.. أميركا الريفية كما رآها مارك توين

اشترك في النشرة البريدية *

البريد الإلكتروني

اشترك الآن